الفصل الثالث

عصر الصين الذهبي

سلالة «تانغ» ذات الدم المختلط

أخبرني والدي عندما كنت فتاة صغيرة أعيش مع أسرتي في مدينة لافايت الغربية بولاية إنديانا أنني أنحدر من صلب شبه إله. كان من الصعب أن أؤمن بمثل هذا الكلام، لكنني اكتشفت أن جدي الأكبر كان رجل دولة محباً للخير ويحظى بكثير من المهابة، وكان يعيش في إقليم فوجيان في الصين. بعد وفاته، وبعد أن رأى القرويون نفراً من الجن الضئيلي الحجم- أو كما وصفهم والدي بالجن الصينيين الخبثاء - يرقصون على قبره، أطلق هؤلاء القرويون عليه لقب الإله، أو (لو- بان).

بعد ثلاثين سنة مرت على سماعي لهذه الحكاية، أعدت سردها على بناتي، وفي سنة ١٩٩٩، أخذتهن أنا وزوجي إلى الصين لزيارة منطقة تانغدونغ حيث كان يعيش جدي الأكبر. كنت أتوقع رؤية قصر متهالك هناك، ولكنه محاط بالمهابة وذلك استناداً إلى الطريقة التي وصف فيها والدي المكان على شاطئ بحر الصين الجنوبي،الذي يشرف على مساحات واسعة من الرمال حيث من المفترض أن يكون بإمكان المرء رؤية مشارف جزيرة تايوان في أيام الصحو.

وبعد رحلة شاقة بسيارة أجرة من مدينة زيامين مدة ساعتين تصببنا فيها

obeikandl.com

عرقاً، وصلنا إلى تانغدونغ. كانت في واقع الأمر قرية ساحلية، وكانت هناك رمال بيضاء - إلا أنه لم يكن هناك أي قصر. كانت هناك بدلاً من ذلك، أكوام هائلة من قواقع المحار النتنة مبعثرة على الشاطئ بارتفاع يصل إلى حوالي ثلاثين أو أربعين قدماً في الجو. كانت القرية تبدو مهجورة تماماً لولا أن بضع دجاجات هزيلة كانت تجوب في أنحائها. كانت قرية تانغدونغ سنة ١٩٩٩، وبغض النظر عن ماضيها التليد، على الأقل بالنسبة للرائي الذي كان ينظر إليها بعيون ملؤها الخيبة، مجرد بلدة فقيرة أشبه بمدينة أشباح.

استطعت في نهاية المطاف رؤية أحد القرويين المحليين. كان يجلس أمام شرفة في شارع البلدة الرئيس الطويل والذي يعج بالغبار. كان يحدق بنا وهو فاغر فاه. كانت أسنانه الأمامية الأربع غير موجودة. أخبرته بلغة المنطقة المحلية باسم عائلتي، وسألته فيما إذا كان يعرف أين كانت تقيم عائلة شوا. طرفت عينا الرجل العجوز عدة مرات قبل أن يلتفت إلي ويقول ملوحاً بذراعه: «كل من يقطن في هذا الجانب من الشارع ينتمي إلى عائلة شوا»؛ ثم نخر قليلاً وأضاف: «أما قاطنو الجانب الآخر من الشارع فهم من عائلة لاو.»

كان اكتشاف نحو مئتين من الأقارب الطبيعيين، وهو اكتشاف لم يكن بالحسبان، قد عقّدَ المسألة نوعاً ما، وتبين أن البحث عن منزل عائلتي كان من دون جدوى. ولكن لم نخرج خاليي الوفاض؛ فقد تمكنا من العثور على قبر جدي الأكبر الذي انتابتنا الدهشة عندما تبين لنا أنه ما يزال إلى يومنا هذا، وربما لأسباب بقيت منسية، يتمتع بقداسة خاصة عند سكان البلدة المحليين - بالرغم من أن موقع القبر ملاصق لبعض مجاري المياه الصحية التابعة للبلدية.

بالإضافة إلى محاولتي العثور على معلومات حول جدي الأكبر، فقد حاولت تقصي تاريخ كل فرد متميز من بين أجدادي البعيدين الذين عاشوا في الصين. كان أحد أبناء عمومتي منذ خمسة أجيال خلت، يعمل في جمع الأعمال المتميزة المكتوبة

بخط اليد من القرن التاسع عشر، وتوجد مجموعته هذه في متحف شنغهاي. أما عمي الأكبر، شوا جي كون الذي ربما لم يكن من أقاربي الذين تربطني بهم صلة دم مباشرة، فقد كان مؤلف سيمفونيات بارع، ومؤسس كلية فوزو للموسيقى. أخيراً، اكتشفت هناك إرثَ عائلتي الأكبر - وربما كان ذلك إرثنا الوحيد - وهو عبارة عن مخطوط يتكون من رسالة تتألف من ألفي صفحة خطها بيده أحد أجدادي المباشرين واسمه شوا وو نينغ الذي كان العالم الفلكي التابع للإمبراطور شين زونغ الذي يتبع لسلالة مينغ. وقد تم تعيين وو نينغ الذي كان فيلسوفاً وشاعراً من قبل الإمبراطور رئيساً لهيئة أركان الجيش سنة ١٦٤٤، عندما تصدت الصين لغزو المانشويين. وهناك نسخة مجلّدة بغلاف جلدي من رسالة وو نينغ هذه موضوعة بشكل لافت على طاولة صغيرة في غرفة الجلوس بمنزلي.

أتمسك بهويتي ذات الجذور الضاربة في عمق التاريخ، وذات الثقافة الراقية، مثلي في ذلك مثل العديد من الناس الذين يعودون بجذورهم إلى إمبراطوريات عظيمة سابقة - سواء كانت تلك الإمبراطوريات في الصين، أو بلاد الإغريق، أو بلاد فارس أو تركيا أو روما.

كانت التقاليد الصينية الموغلة في القدم، والمتمثلة في خط اليد، والعلوم، والشعر، والأوبرا، والفلسفة، وعلوم الطبيعة، والفلسفة الكونفوشيوسية تثير في نفسي إحساساً بالروعة، ربما بسبب أن تلك المجالات كانت تتعارض بشكل جلي مع واقع الصين التي تنتمي إلى العالم الثالث الكئيب الذي كان علي مواجهته في مراحل طفولتي الأولى.

ربما كانت أكثر السلالات الصينية شهرة بالنسبة إلى الغربيين هي سلالة مينغ التي اشتهرت بصناعة البورسلين الأزرق والأبيض، والتي شكلت مادة كتاب أصدره كيفن مينزيز بعنوان: ١٤٢١، السنة التي اكتشفت الصين فيها أمريكا، 1421، The Year China discovered America. أما بالنسبة للمنحدرين من أصول

صينية، والمنتشرين في كافة أنحاء العالم، فإن سلالة تانغ هي التي تمثل العصر الذهبي للصين - وهو لم يكن عصراً من الازدهار الاقتصادي والقوة السياسية غير المسبوقيْن وحسب، بل كان يمثل قمة الإنجازات الفنية والأدبية في الصين، حيث أسس لمعايير طمحت إلى تحقيقها جميع السلالات التي تلتها [١]. أما بالنسبة لعدد السكان الذين كانوا تحت سيطرتها، فقد تخطت سلالة تانغ بكثير جميع الإمبراطوريات المعاصرة لها بما في ذلك الخلافة العربية القوية النفوذ. ولم يكن من قبيل المصادفة أن سلالة تانغ كانت أكثر انفتاحاً، وأكثر عالمية وانفتاحاً من الناحيتين العرقية والدينية من أي إمبراطورية معاصرة لها، وربما كانت الأكثر انفتاحاً وتسامحاً في التاريخ الصيني.

التعصب و«البرابرة» في التاريخ الصيني

كانت سهول النهر الأصفر الذي يجري وسط الصين مليئة بالممالك والقبائل والدويلات المتنافسة، التي خاضت حروباً لا تنتهي ضد بعضها بعضاً طيلة عدة قرون سبقت سنة ٢٢١ قبل الميلاد. كان هذا العصر الذي شابته الانقسامات والنزاعات المستمرة، والذي أطلق عليه وصف حُقَبُ «الربيع والخريف»، و«الدويلات المتحاربة» يتسم أيضاً بنهضة فكرية هائلة. كانت جميع المدارس الفلسفية الكبرى في الصين - بما في ذلك الكونفوشيوسية، والتاوية، والليغالية - قد ظهرت في تلك الحقبة. وكما أشار المؤرخون الصينيون فيما بعد، فإنها كانت الحقبة التي تنافست فيها «مئة من المدارس الفكرية» فيما بينها [٢].

انتهت حقبة «الدويلات المتحاربة» بفضل إمبراطور الكنيين (كِن شي هوانغدي) الذي وحّد الصين سياسياً للمرة الأولى سنة ٢٢١ قبل الميلاد. (كلمة «كِن» التي تلفظ «تشين» هي المصدر الذي اشتقت منه لفظة «الصين» أو China). وكأي مؤسس من مؤسسي الأمم العظيمة، فرض وحدة نقد معيارية موحدة، ولغة مكتوبة موحدة، آخذاً على عاتقه مشروعات بناء على مستوى لم يسبق له مثيل بما في ذلك سور

الصين العظيم الذي يبلغ طوله ١٥٠٠ ميلاً، والذي قيل إن مليوناً من العمال قتلوا في مختلف مراحل تشييده، بالإضافة إلى مقبرة الإمبراطور الملكية الخاصة التي تضم في جنباتها رفات سبعة آلاف من الجنود في مقابر طينية. وكان الإمبراطور الأول معروفاً بشدة تعصبه وقسوته حتى بين معجبيه. فقد منع قيام المناظرات الفلسفية، وقام بحرق آلاف من الكتب "الهدامة"، كما منع أي مديح للماضي، وأي نقد للحاضر. قيل إن الإمبراطور قام سنة ٢١٢ قبل الميلاد بإعدام ٦٤٠ مفكراً وباحثاً، ودفنهم جميعاً في قبر جماعي واحد. أما المفكرون الذين أعلنوا تحديهم للإمبراطور، فقد كانوا يدفنون أحياء، أو تُسلقُ أجسادهم بالماء المغلي حتى الموت، أو تمزق أجسادهم إرباً، إرباً بواسطة عربات تربط أطرافهم إليها [٣].

أدت سياسات الإمبراطور الأول القمعية إلى قيام حركات تمرد واسعة الانتشار، وجرت ثلاث محاولات على الأقل، لاغتياله. وبالرغم من أن الإمبراطور نجا من جميع هذه المحاولات لاغتياله، فقد انتابه نوع من الهوس المتمثل في البحث عن إكسير للحياة يساعده في التمتع بحياة أبدية؛ ومن المفارقة أنه مات في إحدى سفراته بحثاً عن هذا الإكسير. كان ابنه الذي خلفه في الحكم ضعيفاً. وبعد مرور خمس عشرة سنة على قيام هذا الحكم، تمت إزاحة عائلة كِن عن السلطة، وخلفتها سلالة الهان، التي تولت زمام الحكم، واستمرت فيه مدة أربعمئة سنة.

بالرغم من قِصَرِ مدة حكمه، أسس الإمبراطور الأول لمبدأ راسخ تكرر ظهوره على امتداد التاريخ الصيني- ولم تخرقه سوى استثناءات لافتة قليلة، بما في ذلك سلالة تانغ، مفاده أن القمع الذي لا هوادة فيه لظاهرة التنوع ضروريٌ للمحافظة على وحدة الصين. وكان التنوع الفكري الضحية الرئيسة للقمع إبان حقبة حكم سلالة كِنْ. وقد ظهر التعصب الصيني في الألفيتين التاليتين على هيئة الاضطهاد العرقي والديني، و«التطهير الثقافي»، ورفض الأجانب والأفكار الأجنبية، كما تجلى في أكثر صوره وضوحاً في المركزية العرقية الصينية، والتأكيد على التفوق الثقافي الصيني.

ربما قامت كافة المجتمعات بممارسة أشكال متفاوتة من المركزية العرقية، إلا أن ظروف الصين الخاصة شجعت على ممارسة هذه الأساليب بدرجة غير عادية. ونظراً لكونها متقوقعة ضمن حواجز جغرافية طبيعية، لم تقم الصين، وعلى امتداد عدة قرون، سوى بالحد الأدنى من التواصل مع الحضارات الراقية في أوروبا والهند والشرق الأوسط. كان جيران الصين الرئيسيون عبارة عن مجموعات متناثرة من بدو وقبائليين. ولذلك فقد كان الصينيون على امتداد قرون من الزمن، يشكلون أكبر التجمعات السكانية الموحدة في المنطقة، وأكثرها مدنية، وتعلماً، ومن ثم، أكثرها تقدماً من الناحيتين التقانية والثقافية.

في الوقت نفسه، كانت لدى الصينيين أسبابهم الوجيهة للتوجس من جيرانهم. فقد كانوا متفوقين على جيرانهم بصورة كبيرة عددياً وتقانياً، لكن البدو كانوا يتمتعون بميزة لم تكن موجودة لدى الصينيين، ألا وهي الخيل. كانت تحت سيطرة البدو لوحدهم مساحات شاسعة من الأراضي العشبية الضرورية التي استخدموها مراعي لتربية أنواع خاصة من الخيول على امتداد قرون من الزمن، وهو ما وفر لهم تفوقاً عسكرياً حاسماً. كانت هذه الخيول، بالإضافة إلى المهارات الرائعة التي أظهرها الخيالة ورماة النبال، والتي اكتسبوها من ممارستهم للصيد، تساعد هؤلاء البرابرة الرحل في القيام بغارات على المناطق المأهولة إلى الجنوب منهم، بغية الاستيلاء على مواد الغذاء الصينية، بالإضافة إلى مواد أخرى كانوا يحتاجونها للبقاء على قيد الحياة، ثم ينسحبون بعد ذلك باتجاه السهوب الشاسعة. أدى هذا النوع من التهديد والنهب المستمرين من قبل الخيالة المغيرين، والذي شكل معضلة استعصت على الحل، إلى غرس فكرة البربرية في أذهان الصينيين. لم تقتصر تهمة البربرية على شعوب السهوب وحسب، بل تعدتها لتشمل بعض الأجانب الذين كانوا أكثر خطورةً من أجانب آخرين، وبعضهم كان أكثر تحضراً من البعض الآخر، إلا أن الجميع من غير الصينيين، كانوا بشكل أو بآخر، من البرابرة [٤].

حتى في الصين «المنفتحة» هذه الأيام، يُعد الاختلاط بالأجانب مسلكاً غير

طبيعي، وإلى حد ما، من المحرمات بالنسبة إلى العديد من الصينيين. أما الأشخاص الذين ينتمون إلى أصول ثقافية مختلطة، فإنهم في نظر الصينيين نماذج غريبة جداً. ابنتاي على سبيل المثال، نصف صينيتين. كلتاهما لهما شعر بني وعيون بنية، وملامح آسيوية غامضة، وكلتاهما تتكلمان اللغة الماندارينية بطلاقة. ولكن أينما اتجهتا في أثناء الرحلة التي قمنا بها إلى الصين سنة ٢٠٠٤م - حتى في بيئة متطورة مثل بيئة شنغهاي - كانتا تسترعيان انتباه جموع من الجماهير الفضولية الذين كانوا يحدقون في «الفتاتين الأجنبيتين الصغيرتين اللتين تتحدثان الصينية» ويشيرون إليهما متضاحكين كما لو أن هاتين الفتاتين قدمتا من الفضاء الخارجي. وعندما كنا نلتقط صوراً لدببة الباندا في مركز تربيتها في مدينة شينغدو، - تلك المخلوقات النادرة الوردية اللون التي تتلوى مثل اليرقات - كان السياح الصينيون يلتقطون صوراً لنا.

قدم الإمبراطور الأول أكثر من إرث للأمة ارتبط باسمه. فسور الصين العظيم الذي بناه، ما يزال أعظم صرح تاريخي في الصين. وأصبح رمزاً للصين نفسها منذ زمن طويل - إذ إنه يرمز إلى وحدة البلاد، وسلامة أراضيها، ونقائها، وحاجتها الماسة والدائمة لتحصين وحماية حضارتها الأكثر رقياً من هجمات «البرابرة»، سواء كانوا من البدو الشرسين القادمين من وسط السهوب الآسيوية، أو «الإمبرياليين» القادمين من أوروبا، أو اليابان، ومؤخراً، من الولايات المتحدة.

وهكذا، فإن من المفارقة ملاحظة أن عصر الصين الذهبي أسس له رجل ذو دم مختلط، كان أجداده من البرابرة، وأن العالمية كانت أهم سمات عصر التانغ أكثر من أي شيء آخر، وأن ذلك العصر حافظ على التنوع الثقافي، وكان يبدي انفتاحاً على الأجانب، لم ير التاريخ الصيني له مثيلاً.

صعود نجم سلالة التانغ (٦١٨- ٩٠٨ ميلادية)

بعد انهيار سلالة الهان الحاكمة سنة ٢٢٠ ميلادية، عانت الصين من ثلاثة

قرون من التمزق والتشرذم. وفي نهاية القرن السادس، استولت على شمال الصين مجموعة من أمراء الحرب، والعشائر الأرستقراطية، كانت تنتمي في الغالب إلى أصول صينية وتركية مختلطة، بينما كانت تسيطر على جنوب الصين عشائر صينية أكثر «نقاء».

نجحت عشيرة "سوي" سنة ٥٨١ في إعادة توحيد الصين، لكن حكمها لم يدم طويلاً. انهارت سلالة سوي الحاكمة بعد مرور ثلاثين سنة فقط على استلامها الحكم بفعل هجمات التركيين المتلاحقة القادمة من السهوب، وحركات العصيان الداخلية، وتوسعها العسكري المبالغ فيه. أعلن الجنرال "لي يو وان" الذي كان ينتمي إلى أصول أرستقراطية تركية انشقاقه سنة ٦١٨ عن سلالة سوي الحاكمة، واتجه نحو العاصمة شانغان (هي اليوم مدينة زيان)، ونصب نفسه إمبراطوراً على الصين، مغدقاً على نفسه لقب "غاوزو" ويعني بالصينية (الجد الأكبر). وهكذا تأسست سلالة تانغ الحاكمة التي حكمت الصين على مدى القرون الثلاثة اللاحقة.

كانت الطريقة التي انتصر فيها غاوزو على سلالة سوي ذات دلالة شديدة الأهمية: فقد دخل في حلف عسكري مع البرابرة الترك الشرقيين. والأنكى من ذلك، أن غاوزو استعمل في رسالته الموجهة إلى الحاكم التركي لفظة كي qi – التي تستعمل عندما يخاطب شخص دوني سيده. أن يقوم شخص في طريقه إلى تبوء منصب الإمبراطور بمخاطبة بربري كندّ له، أو – وهذا أشد وأدهى – كسيّد له، فإن ذلك شكلاً من أشكال الدخول إلى عالم المحرمات. وقد برر غاوزو ذلك لمستشاريه الكونفوشيوسيين المذعورين الذين اعترضوا على لغة الخطاب تلك بالقول: "كان الأسلاف يقولون: انحن أمام شخص واحد، وكن قائداً لعشرة آلاف." ما الذي يمثله جميع أولئك البرابرة خارج نطاق الحدود استناداً إلى هذه المقاربة؟ إنهم لا يعنون جميعاً سوى رجل عادي واحد. زد على ذلك، لا تساوي لفظة كي ألف رطل من الذهب. أنا مستعد للتخلي عن كل هذا المبلغ. لماذا على المرء أن يساوره القلق من أجل كلمة واحدة؟»

كانت دبلوماسية غاوزو تعكس الحقائق الجديدة في الصين، في القرن السابع. كانت الصين في ذلك الوقت مهددة من كل جانب، من قبل مجموعات قوية غير صينية بمن فيها التركيين الشرقيين والغربيين، والإيغوريين، والكيتانيين، والزينيين، وكانت جميع تلك القوى تستوطن أراضي السهوب الواقعة في شمال الصين، بالإضافة إلى التيبيتيين، والنانزهويين، والكورغويين من شبه الجزيرة الكورية. كانت المحافظة على صين موحدة في وجه كل هذه التهديدات تتطلب ليس فقط سوراً عظيماً، بل جملة من العلاقات المعقدة والتحالفات مع مختلف المجموعات البربرية [٥].

زد على ذلك، أن المشهد الديني في الصين تغير بشكل جذري منذ سقوط سلالة الهان الحاكمة. مع حلول الوقت الذي استلم فيه أباطرة التانغ زمام الحكم سنة ٦١٨، أصبحت البوذية - التي تأسست في الهند ونشرها في الصين تجار ومبشرون - الديانة الأكثر انتشاراً في الصين، وكان أتباعها يفوقون عددياً أتباع الديانة التاوية المحلية. استطاعت الديانة البوذية التأقلم مع الواقع الصيني من خلال استيعاب بعض العناصر المحلية والتكيف معها. لم يكن معظم أتباع الديانتين البوذية والتاوية يجدون غضاضة في التعبد للآلهة البوذية، والتاوية، والمحلية على حد سواء في الوقت الذي كانت الخلافات المريرة بين الكهنة البوذيين والتاويين على أشدها. كان وعد البوذية بالجنة بالنسبة للشخص العادي أكثر جاذبية من مفهوم الديانة التاوية للحياة بعد الموت الذي يقضي بتمتع قلة قليلة فقط بالديمومة، في حين أن الغالبية الساحقة من البشر سوف تعاني من ديمومة من نوع آخر في سجن العالم السفلي [٦].

أخيراً، بدأ الخط الفاصل بين الصينيين والبرابرة، على الأقل في شمال الصين، بالتلاشي. فبعد انقضاء قرون من الفوضى، استطاع عدد من الحكام «البرابرة» فتح أجزاء من شمال الصين، وتأسيس ممالك لهم هناك. تبنى بعض أولئك الحكام العادات الصينية، وتزاوجوا مع بعض العائلات الصينية ذات النفوذ الاجتماعي القوي، ممهدين بذلك الطريق أمام نشوء جيل جديد من الأرستقراطيين من ذوي الدماء المختلطة الذين أتقنوا مهارة ركوب الخيل، وأيدوا الديانة البوذية،

وتحدثوا اللغتين الصينية والتركية. (نظراً لأن معظم البرابرة لم تكن لديهم لغة مكتوبة، فقد كان إتقان اللغة الصينية ضرورياً جداً من أجل تبوء أي منصب رسمي.) أدت السيطرة على الشمال من قبل البدو السابقين المتصينين (أي أولئك الذين تحولوا إلى صينيين)، والذين كانوا في الغالب من ذوي الثقافة العالية، وشيوع الزواج المختلط إلى طرح تساؤلات زادت من تعقيد القناعات التقليدية التي تفيد بأن الصينيين متحضرون بينما البرابرة كانوا غير ذلك. وفي حين أن نفس أباطرة التانغ الذين كانوا يدعون بأنهم من نسل الجنرال الهاني الشهير "لي غوانغلي"، والفيلسوف التاوي "لاو تزو"، فإنهم كانوا أيضاً ينحدرون من نسل الأرستقراطيين الذين استوطنوا شمال الصين، ولم يكونوا في أغلب الظن أكثر من نصف صينيين.

اجتمعت هذه العناصر مع عناصر أخرى لتنتج عنها سلالة حاكمة أكثر تسامحاً مع الثقافات الأجنبية، والديانات، والتأثيرات القادمة من الخارج من أي سلالة حاكمة في التاريخ الصيني. تمثل هذا التسامح في شخص تايزونغ، وهو الإمبراطور التانغي الثاني الذي كان في نظر البعض أكثر حكام الصين حكمة وبطولة. غالباً ما يصف المؤرخون الإمبراطور تايزونغ بأنه «المؤسس الحقيقي» لسلالة التانغ الحاكمة بالرغم من أن قصة حزينة مفاجئة كانت وراء اعتلائه العرش.

باني الإمبراطورية

كان اسم تايزونغ عند ولادته "لي شيمين"، وكان واحداً من عدة أبناء للإمبراطور غاوزو. وكان لي شيمين هو من شجع والده وهو في سن السابعة عشرة على الثورة على حكام سوي سنة ٦١٧. بعد استيلاء والده على شانغان، كان على نظام حكم تانغ الفتي مواجهة المئات من حركات التمرد إضافة إلى تحديات مصدرها العشائر القوية المنافِسة. على امتداد السنوات السبع اللاحقة، كان لي شيمين يقود الجيش من نصر حاسم إلى آخر، وكان يطيح بمهارته العسكرية الفذة بجيوش أكبر من جيشه بكثير في الوقت الذي استطاع تحييد التركيين على الحدود الشمالية. عززت

عائلة "لي" سلطتها في كل من شمال الصين وجنوبها بحلول سنة ٦٢٤. وكان العامل الحاسم في انتصارات التانغيين يتمثل في اعتمادهم على الأجانب. بنت عائلة لي قواتها العسكرية الغازية من مجموعات متنوعة من الجيوش الأجنبية التي كان يسمح لقادتها بالاستمرار في قيادة جيوشهم، وممارسة الحكم في المناطق التي يقطنونها، والتي ضمت إلى الإمبراطورية [٨].

بدأ لي شيمين وإخوته يتصارعون على السلطة منذ اللحظة التي تسلمت فيها سلالة التانغ مقاليد الحكم. قام لي شيمين سنة ٦٢٦ بقتل أخيه الأكبر، ولي عهده؛ وفي مناسبة أخرى، تنحى جانباً وهو يراقب أحد ضباطه ينفذ حكم الإعدام بأحد إخوته الباقين. بعد ذلك، قام بخلع والده عن عرش السلطة، وبدأ يحكم تحت اسم الإمبراطور تايزونغ لأكثر من عقدين (٦٢٦- ٦٤٩). بالرغم من معاملته الوحشية لأفراد أسرته، يحتل الإمبراطور تايزونغ موقعاً محترماً في التاريخ الصيني - وهو يذكر دائما (وهذا يشكل مدعاة للدهشة) على أنه الملك الخيّر.

كان هدف تايزونغ إنشاء إمبراطورية كونية يكون فيها الصينيون والبرابرة متساوين في الحقوق والواجبات، وحيث يكون هو حاكماً للجميع، بصفتيْ الإمبراطور والخان التركي. وصف تايزونغ هذا الهدف بقوله: «كان أباطرة الصين القدماء جميعاً يكنون الاحترام للصينيين، ويحتقرون البرابرة. أنا الوحيد من بينهم جميعاً، الذي يؤمن بأنهم مساوون لنا. ولهذا السبب فهم يعتبرونني بمثابة الأب لهم.» وقد سار على خطا والده في دمج الشعوب المستعمَرة في جسم الإمبراطورية مستفيداً من التركيين والقادة الأجانب الآخرين كجنرالات في الجيش الإمبراطوري مغدقاً عليهم الألقاب الصينية ومقيماً تحالفات معهم عن طريق المصاهرة، ومانحاً إياهم الكنية الملكية "لي". لم يأتِ زعمه بأن التركيين يعتبرونه بمثابة أب لهم من فراغ. فقد عزز صداقاته وكان ما يزال في صباه الأول، مع أمير تركي غربي وخان تركي شرقي. وساعدت هذه العلاقات الأولى فيما بعد في جعله حاكماً مقبولاً بالنسبة للبدو الرحل.

كان تايزونغ مخططاً إستراتيجياً بارعاً، وهكذا فقد انضوت العديد من المناطق تحت مظلة حكم المملكة الوسطى إبان عهده. وبينما كان أباطرة الهان راضين بإبقاء السهوب الشمالية وراء حدود السور العظيم للبدو الرحل الذين يحكمهم «الخان» الخاص بهم، كان طموح تايزونغ يتجاوز ذلك بكثير. أغدق عليه زعماء المغول الأتراك لقب الخان الإلهي سنة ٦٣٠ بسبب مزيج من «الكاريزما الشخصية»، والخداع، والاحتفالية البدوية، والتكتيكات العسكرية في المعارك»، التي أثارت مشاعر الأتراك المغول. قبل تايزونغ هذا اللقب، وبموجبه، أصبح الحاكم الصيني الأول الذي يبسط نفوذه على السهوب [٩].

كان نيل تايزونغ للقبيّ ابن الآلهة، والخان الإلهي في وقت واحد بمثابة سابقة. فقد شَرْعَنَ لقب الخان الإلهي التركي المنشأ، بجذوره الضاربة في التقاليد البدوية سلطة تايزونغ خارج نطاق السور العظيم. وكان مما يثير الدهشة أيضاً سياسة التسامح ببلاغتها اللافتة، والتي مارسها تايزونغ، بالمعنى الحديث للعبارة. قال: «يُعد شعبا "يي" و "دي" (وهما شعبان يعيشان في السهوب) من البشر أيضاً وتعتبر طبيعتهم شبيهة بطبيعة الصينيين. يجب أن يتأكد الحاكم من أن الخير الناجم عن الفضائل التي يتمتع بها لا بد وأن يشمل أفراد هذه الشعوب جميعاً، كما يجب أن لا تساوره المخاوف من احتمال عدم ولائهم بسبب انتمائهم لأعراق مختلفة» [١٠].

بطبيعة الحال، لا يجب أن ينظر إلى بلاغة خطب تايزونغ التي تمحورت حول مسألة المساواة من حيث الشكل فقط،. فقد كانت حملة دعائية أكثر منها وصفاً حقيقياً للسياسة المتبعة، وكانت موجهة بالدرجة الأولى إلى الأتراك أكثر منها إلى الصينيين. مع ذلك، من المهم أن يتذكر المرء أن تصريحات تايزونغ كانت تتجه عكس التيار الإمبراطوري السائد، وعكس الرؤية الصينية للعالم آنذاك (ويمكن القول أيضاً، عكس الرؤية الصينية لعالم اليوم).

وسّعَ تايزونغ من سيطرة إمبراطورية التانغ على مناطق آسيا الوسطى، وعبر جبال البامير وصولاً إلى أفغانستان الحديثة من خلال توحيد الجيشين التركي

والصيني. تحولت كل من سمرقند، وبخارى، وطشقند إلى ولايات تابعة للإدارة الإمبراطورية الصينية. كما خضعت التيبيت والقبائل التركية في أقصى الغرب وصولاً إلى بحر قزوين للسيادة الصينية. لم تكن تلك الفتوحات ممكنة لولا اصطفاف هذه الجيوش البدوية خلفه. وسّع خلفاء تايزونغ حكم التانغ للمناطق التي خضعت للإمبراطورية بحيث أصبحت تشمل منشوريا، والجزء الأكبر من شبه الجزيرة الكورية، ووسط فيتنام، وأجزاء مما يعرف اليوم بإيران. لم تصل أي إمبراطورية في العالم إلى حجم المساحة التي وضعت إمبراطورية التانغ يدها عليها، أو إلى عدد السكان أنفسهم الذين استعمرتهم، أو إلى القوة العسكرية نفسها.

أقر تايزونغ منذ بداية استلامه مقاليد الحكم بمزايا التجارة وفوائدها. أفرغ تايزونغ صناديق أموال الإمبراطورية منذ بداية عهده وأنفقها في سبيل تجديد طريق الحرير وإصلاحه. كما عمل في الوقت نفسه على تشديد قبضة سيطرته على أقاليم وولايات الواحات التي تقطنها غالبية من الأتراك الغربيين مختتماً بذلك فتوحات الإمبراطورية سنة ٦٥٨. وبعد أن أضحى طريق الحرير أكثر أماناً من خلال سيطرة إمبراطورية التانغ عليه، وحمايتها له، بدأ تدفق الأجانب مع البضائع التي يصطحبونها إلى شانغان وإلى الحدود الشرقية لطريق الحرير من جنوب آسيا وشرقها. كما تدفقت البضائع والأزياء الأجنبية إلى بقية أنحاء الصين من تلك المناطق. وكذلك الوفود من أماكن بعيدة مثل الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية الساسانية.

أقامت الصين التانغية في نهاية المطاف علاقات وروابط مع أكثر من ثلاثمئة من البلدان والمناطق. امتزجت التجارة بالدبلوماسية، وكان من الصعب التفريق بينهما في أغلب الأحيان: سهل نظام الضرائب التبادل التجاري الكبير للبضائع، كما كان المبشرون والتجار يسافرون في قوافل مشتركة؛ كما أنشئ نظام بيروقراطي معقد أسهم في إدارة كافة مظاهر العلاقات الخارجية: مثل اللقاء مع الموفدين الأجانب، وترتيب التنقلات والإقامة في داخل الصين نفسها، ومنح ألقاب صينية

لملوك أجانب تكريماً لهم، بالإضافة إلى فتح سجلات للهدايا والبضائع المقدمة للإمبراطور، وتعيين مترجمين، وإعداد معلومات عن العادات الأجنبية، وجغرافية مختلف المناطق الأجنبية ومنتجاتها. وكان على جميع الموظفين الصينيين العاملين في الخارج، والبيروقراطيين، وحتى الأميرات الصينيات المتزوجات من أجانب الإدلاء بتقارير تتضمن معلومات عن البلدان الأجنبية.

ترافق التصاعد الهائل في عمليات التواصل مع الأجانب إلى افتتان عريض بالبضائع الأجنبية: «تغلغل تذوق الصينيين للفخامة داخل كل طبقة اجتماعية، وفي جميع مناحي الحياة اليومية.» أصبح الصينيون في كل من شانغان وليو وانغ يرتدون الثياب التركية والفارسية؛ وكان الرجال والنساء على حد سواء يفضلون ارتداء القبعات التي يرتديها عادة البرابرة، خصوصاً عندما كانوا يمتطون الجياد. أدى انتشار موضة البضائع التركية إلى نزوع الصينيين في زحمة الحياة في العاصمة، نحو الإقامة في الخيام. قطعت الغابات في جنوب شرق آسيا من أجل الحصول على أنواع ثمينة من الأخشاب وذلك بغية استخدامها كأرضية في صالات الألعاب الصينية، ومن أجل تحويلها إلى أثاث، وفي أعمال الحفر بغية تزيين أماكن العبادة والقصور والمعابد والمباني الفخمة والأديرة.كما كان الصينيون مفتونين بالأدوية والأطعمة والتوابل الأجنبية لغايات طبية وأعمال السحر. كانت العطور الهندية مرغوبة جداً؛ وكانت سيدات البلاط تفوح منهن روائح العطر النفاذة لدرجة أنه أشيع أنه كان من الممكن شم روائحهن على بعد أميال.

كانت الحيوانات الأجنبية تضفي نوعاً من المتعة على أجواء الطبقات الحاكمة وأفراد الشعب العاديين كذلك. فقد كان الموفدون الأجانب يقدمون الأسود، وحيوانات وحيد القرن، والفيلة على شكل هدايا للأباطرة التانغيين. وكان الأجانب أنفسهم من البضائع المرغوبة في الصين؛ فقد كانت العائلات الصينية الثرية تشتري عبيداً أجانب كي يقوموا بأعمال الخدمة المنزلية، كما كانت الراقصات الأجنبيات والموسيقيون والأقزام الأجانب يرسلون إلى البلاط التانغي على شكل هدايا من

ملوك وحكام أجانب. وبالرغم من قيام البعض منهم بمحاولة النأي بأنفسهم عن مظاهر الثراء الأجنبي الفاحش والمفسد في آن، فإن الصينيين بشكل عام لم يكن بوسعهم الحصول على كل ما يشتهونه من البضائع الأجنبية [١١]. يجب أن لا يتم الخلط بين محبة الصينيين للبضائع الأجنبية وبين محبة الأجانب. فقد انتشر بين معظم الصينيين شعور مزدوج حيال ما هو أجنبي: إذ ترافق الشعور بالارتياب والكراهية تجاه الأجانب المنتشر بين الصينيين مع محبة لما ينتجونه من بضائع. كانت تحالفات تايزونغ مع قبائل البرابرة في واقع الأمر تقابل بمعارضة شديدة من قبل حاشيته التي ينتمي معظم أفرادها إلى العقيدة الكونفوشيوسية، والتي أصرت على موقفها الثابت حيال فكرة التفوق الصيني المتوارَث.

تجلت رؤية المركزية العرقية هذه، في مجموعة القوانين التانغية ذات التأثير العريض، والتي نشرها على نطاق واسع مستشارو تايزونغ القانونيون، وتم تبنيها بكليتها لاحقاً من قبل السلالات الحاكمة المتعاقبة، بالإضافة إلى ملوك اليابان وكوريا وفيتنام. كانت مجموعة القوانين التانغية تدعو نظرياً على الأقل، إلى نوع من الفصل العنصري بين الصينيين، وبين غير الصينيين. كانت المستوطنات الأجنبية في ظل هذه القوانين مقصورة على مراكز التجارة في شانغان، وليو وانغ، وكانتون، ويانغزون ، وعلى ممرات طرق التجارة البرية. بالإضافة إلى ما تقدم، لم يكن من المفترض أن يتواصل الأجنبي مع أي صيني إلا بقصد التجارة، أما الصينيون الذين يتزوجون من أجنبيات، فقد كانوا يُنفون إلى أماكن تبعد حوالي ٤٠٠ ميل.

ولكن لم يكن يتم تطبيق هذه التعليمات بشكل صارم. في الواقع، لم يكن أي من قوانين الفصل العنصري التانغي يتسق مع حقائق حياة أسرة التانغ الإمبراطورية. فقد كان الإمبراطور تايزونغ نفسه سليل تزاوج مختلط بين صيني وبربرية، كما كانت الزواجات ذات الطابع الإستراتيجي التي تتم بين الأسرة الإمبراطورية التانغية والأسر الحاكمة في السهوب تمثل أسلوباً تانغياً شائعاً هدفه تعزيز روابط التحالفات الإستراتيجية المهمة مع تلك الأسر الحاكمة. بالإضافة إلى ذلك، قام تايزونغ

بإعادة تموضع حوالي ٧٠٠٠٠ نسمة من كوريا في الصين. وكان الأرستقراطيون والمسؤولون الكوريون الذين استقروا في الصين قد منحوا ألقاباً صينية فخرية. في موضع آخر، قام الإمبراطور تايزونغ بجلب مئة عائلة تركية إلى شانغان للتأكد فيما إذا كان باستطاعة أفرادها التماهي مع الثقافة الصينية غير آبه بالاعتراضات الشديدة التي أبداها بعض مستشاريه. كما عمل على أن يكون الجنود الصينيون، وغير الصينيين مندمجين في الوحدات العسكرية نفسها.

زد على ذلك، كان تايزونغ منفتحاً بشكل جلي على الديانات الأجنبية. فقد عاد أكثر الرهبان البوذيين شهرة، وهو زوان زانغ إلى شانغان حوالي سنة ٦٤٥ بعد رحلة حج استمرت ست عشرة سنة جاس خلالها آسيا الوسطى والهند، وأحضر معه أكثر من ٦٥٠ من النصوص الهندية، ومئة وخمسين من الآثار «الأصلية» لبوذا. استقبل تايزونغ الراهب البوذي العائد بكل ما يليق به من التقدير والاحترام، مغدقاً عليه الهدايا، بالإضافة إلى منحه لقباً فخرياً. وقد قام زوان زانغ بناء على طلب الإمبراطور بتدوين تجربته في سفرته الطويلة تلك، بأسلوب أخاذ، واصفاً المغامرات التي مر بها في باكتريا، وبلاد فارس، وأفغانستان وكشمير، وأخيراً في الهند، حيث استقبله ملك الهندوس العظيم سيلاديتيا بحرارة [١٢].

كرس الراهب زوان زانغ بقية حياته لترجمة النصوص السنسكريتية التي أحضرها معه بدعم من الإمبراطور تايزونغ. كان لهذا الراهب البوذي تأثير كبير على الإمبراطور تايزونغ. وأعلن الإمبراطور تايزونغ في السنة التي سبقت وفاته عندما قاده اعتلال صحته إلى البحث عن دواء بوذي يطيل العمر، أن البوذية أكثر سموا من الديانات الصينية. (يعتقد بعض المؤرخين في عصرنا الحاضر أن الأدوية البوذية التي قام بتركيبها طبيب هندي زعم أن عمره مئتا سنة، قد تكون لسوء الحظ هي السبب في تسميم الإمبراطور) [١٣].

تُعد مدة حكم الإمبراطور تايزونغ واحدة من أكثر المدد تعددية من الناحية

الدينية في التاريخ الصيني. لم يرحب تايزونغ بالبوذية وحسب، بل بديانات جديدة غير مألوفة أتى بها أجانب جاؤوا من أقاصي الغرب الإمبراطوري إلى الصين التانغية. دخلت في عهده إلى الصين ديانات الزرادشتية والمانوية واليهودية والإسلام والمسيحية - بواسطة مسافرين سلكوا طريق الحرير - وكانت هذه الديانات تمارس بحرية في الصين من قبل أتباعها الأجانب. كان التجار الفرس المقيمون في منطقة السوق الغربي بمدينة شانغان حيث يتجمع فيها سكان من أصول أجنبية، يقومون بذبح حيوانات حية كأضاحي على مذابح النار الزرادشتية، بينما كان المؤذنون يعتلون المآذن صباحاً ومساء داعين المسلمين إلى أداء الصلاة. في وقتنا الحاضر، يوجد في شانغان مبنى ضخم يضم مسجداً كبيراً تعلوه كتابات باللغتين العربية والصينية[١٤].

وصلت المسيحية النيسطورية وهي مزيج من المسيحية وديانات أخرى من الشرق الأدنى إلى الصين أيضاً في عهد تايزونغ. في سنة ٦٣٥، دخل راهب نيسطوري كان يعرف لدى الصينيين باسم "أو لو بين" (ربما كان هذا الاسم ترجمة لاسم «روبين») إلى البلاط الإمبراطوري. التقى به الإمبراطور تايزونغ عدة مرات، وفي كل مرة كان يوجه إليه جملة من الأسئلة حول معتقداته، حتى أنه طلب إليه في أحد اللقاءات القيام بترجمة كتبه المقدسة. ونظراً لتأثره البالغ بنتيجة تلك اللقاءات لم يكتفِ الإمبراطور بإصدار أمر ببناء معبد نيسطوري في شانغان، بل أصدر المرسوم التالي:

> الطريق لها أكثر من اسم واحد. هناك أكثر من حكيم واحد. تختلف المبادئ من مكان إلى آخر، لكن خيرها يعم العالم أجمع. أحضر أو لو بين - وهو رجل يمتلك فضائل عظيمة من الإمبراطورية الرومانية - معه صوراً ونصوصاً من الماضي البعيد حتى وقتنا الراهن كي يعرضها في عاصمتنا. بعد تمحيص مبادئه، وجدنا أنها عميقة ومسالمة. وبعد دراستها دراسة متأنية، وجدنا أنها تركز على ما هو خير ومهم في النفس البشرية. لا يتصف تعليمه بالإسهاب، كما أن منطقه مقنع. هذا الدين يؤدي خدمة للبشر جميعاً. فلندعْ هذا الدين يمارَس بحرية في إمبراطوريتنا [١٥].

كانت لحقبة حكم تايزونغ عواقب متقلبة على الهرمية الاجتماعية التقليدية للصين. ففي سنة ٦٣٢، أمر تايزونغ بإعداد لائحة بأهم العائلات في الإمبراطورية. أثار هذا الأمر شعوراً بالإذلال. فبينما كان الزواج المختلط بين الصينيين وغير الصينيين مألوفاً في عهد التانغيين، بقيت العشائر الصينية الأكثر أرستقراطية صينية محضة، أي «نقية الدم» من الناحية العرقية، وكانت تنظر بكثير من الفوقية إلى العشائر من«أشباه البرابرة» المقيمين في منطقة الشمال الغربي بغض النظر عن مدى "تَصيّنهم". وكان ما أثار حنق الإمبراطور هو أن التقرير صنف عائلته في المرتبة الثالثة. رفض تايزونغ مسودة التقرير، وأعطى أوامر بوجوب إعادة النظر فيه. لا حاجة إلى التأكيد على أن النسخة الثانية المعدلة من التقرير وضعت العائلة الإمبراطورية الحاكمة في المرتبة الأولى.

كانت لهذه اللائحة السلالية نتائج أخرى لا تقل أهمية. فقد رفعت مرتبة العائلات التي ينتمي إليها أهم الوزراء – الذين اختارهم تايزونغ لمساعدته في الحكم على أساس الكفاءة والثقافة الكونفوشيوسية – إلى مستوى يفوق أكثر العشائر قوة من الناحية التاريخية. أولاً، قامت برفع مستوى المفكر الباحث إلى مرتبة تفوق مرتبة الانتماء إلى الطبقة الأرستقراطية. ثانياً، مهدت السبيل أمام الكفاءة كي ترتقي في السلم الوظيفي الحكومي الصيني بموجب الخضوع إلى نظام امتحان لسبر غور هذه الكفاءة. هذه المؤسسة التي كانت ستغير ليس فقط المجتمع الصيني، بل كثيراً من المجتمعات الشرق آسيوية، لم يؤسسها تايزونغ نفسه. أما الشخص المسؤول عن تطوير هذه المؤسسة فكانت الإمبراطورة "وو"، المحظية السابقة التي أصبحت المرأة الأولى والوحيدة التي حكمت الصين بشكل رسمي[١٦].

الإمبراطورة وعقاقير الشهوة الجنسية

الابن الذي اختاره تايزونغ لخلافته كان شخصية غير اعتيادية، ربما كان ذلك الابن مختلاً عقلياً. كان يرفض التحدث باللغة الصينية، وكان يصر على استخدام اللغة التركية بدلاً منها، متبعاً العادات التركية، ومرتدياً الزي التركي. وكانت

علاقته الجنسية الشاذة بأحد مهرجي البلاط أثارت حنق والده الذي أمر بقتل العشيق. انتهى الأمر بالأمير الوريث إلى القتل هو الآخر، فاعتلى العرش أحد أبناء تايزونغ الآخرين وأطلق عليه اسم الإمبراطور غاوزونغ. إلا أن غاوزونغ كان ضعيفاً ومتراخياً، وقد كان معظم مدة حكمه الطويلة (٦٤٩- ٦٨٣) مجرد دمية بين يديّ زوجته، الإمبراطورة "وو".

كانت وو زاو امرأة نادرة الجمال والذكاء؛ وكانت تتميز أيضاً بانتهازية سياسية لا تعرف الرأفة. أصبحت في سن الثانية عشرة محظية في بلاط الملك تايزونغ العجوز. كانت العادات تقضي، بأنه بعد وفاة الإمبراطور تايزونغ سنة ٦٤٩، أن تحلق وو زاو شعر رأسها وتصبح راهبة بوذية كبقية المحظيات اللواتي لم يكن لهن أولاد. من غير المؤكد أن وو زاو قامت بذلك، وهذا الأمر ما يزال موضع نقاش؛ ولكن على أي حال، خلبت وو زاو لب الإمبراطور الجديد غاوزونغ، حيث أصبحت خليلته المفضلة، وأنجبت له ولداً سنة ٦٥٢. تمت ترقيتها سنة ٦٥٥ إلى مرتبة إمبراطورة. بعد ذلك بمدة وجيزة، ولكي تزيح من أمامها أي تهديد لسلطتها، قيل إنها قامت بإزاحة زوجة غاوزونغ الأولى، ومحظية أخرى منافسة لها من طريقها بأن أعطت الأوامر بقطع أيديهما وأرجلهما، ثم رمي المرأتين بوعاء ضخم لصناعة الخمر. عندما تعرض زوجها لجلطة دماغية تسببت في إصابته بالشلل سنة ٦٦٠، أصبحت هي حاكمة للصين بحكم الأمر الواقع. في سنة ٦٩٠، أي بعد سبع سنوات على وفاة غاوزونغ، اعتلت وو زاو العرش بصفة رسمية. منحت نفسها لقب الإمبراطور، وأعلنت عن قيام سلالة حاكمة جديدة أطلقت عليها اسم زاو. وكانت تلك المرة الأولى والوحيدة في التاريخ الصيني تتسلم فيها امرأة مقاليد الانتداب الإلهي [١٧].

كان اعتلاؤها عرش الإمبراطورية، وقيامها بحكم الصين مباشرة، وبهذا الشكل العلني كإمبراطورة، يشكلان خرقاً للنظام الكونفوشيوسي الذي يقضي أن تكون المرأة في طاعة الرجل. (لم يكن مفاجئاً أن نظرة المؤرخين التقليديين الذين كان معظمهم من أتباع الكونفوشيوسية للإمبراطورة وو كانت سلبية.) إلا أن الإمبراطورة وو استخدمت البوذية بطريقة شرسة لإضفاء صفة الشرعية على

نظام حكمها. أعلنت الإمبراطورة وو سنة ٦٩٤، وبمساعدة من أحد عشاقها – وكان بائع عقاقير تثير الشهوة الجنسية، وتحول فيما بعد إلى راهب – بأنها تقمصت روح المعلم بوذا، وهو المخلّص الذي سوف يقوم في المستقبل بحكم الجنة المقبلة. مولت وو أيضاً إنشاء تماثيل ضخمة مثل تمثال بوذا العملاق الذي تم نحته من الصخر الصلد، ويبلغ ارتفاعه خمسين قدماً. تعاظم شأن البوذية التي كانت تمثل قوة اقتصادية وسياسية في الصين في ظل حكم الإمبراطورة لدرجة أن هذه الديانة "تصيّنت"، وبعدها تفرعت إلى مذاهب صينية مختلفة ومدارس جديدة عظيمة النفوذ. أصبحت الصين في القرن الثامن مصدراً رئيساً لنشر الديانة البوذية بين الحجاج الأجانب، وحتى بين الرهبان الهنود الذين يسافرون إلى الصين من أجل تقديم واجب الاحترام للأرواح الصينية المقدسة السرمدية [١٨].

أجرت الإمبراطورة وو تغييراً آخر في بنية الصين الاجتماعية التقليدية. فقد أزاحت المنحدرين من أصول أرستقراطية من مناطق الشمال الغربي، والذين احتكروا السلطة في الصين على مدى قرون عديدة، عن المناصب الحكومية. ومن بين الإجراءات التي اتخذتها ضد هؤلاء الأرستقراطيين، إصدارها أوامر بإعدام المئات منهم. كما قامت الإمبراطورة بإعادة هيكلة نظام الامتحان المؤهل للتعيين في الخدمة المدنية وتوسيعها، وهو ما أدى إلى ظهور طبقة جديدة من المسؤولين الحكوميين الذين تم اختيارهم على أساس الكفاءة وليس على أساس روابط الدم. لكن النتيجة لم تكن مبنية كلياً على أساس الكفاءة: كان فقط أبناء الأسر المرموقة اجتماعياً هم الذين يسمح لهم بتلقي التعليم الكونفوشيوسي اللازم استعداداً للتقدم إلى هذا الامتحان. مع ذلك، كانت الإضافات الجديدة التي فرضتها الإمبراطورة نقطة تحول في التاريخ الصيني. فنظام الامتحانات الحكومي الذي تأسس حديثاً كان تجسيداً للمبدأ الراديكالي الجديد القاضي بأن موظفي الحكومة يمكن تعيينهم فقط على أساس تحصيلهم العلمي ومواهبهم الأدبية، بعكس الامتيازات التي كان تستند فقط إلى معايير الوراثة [١٩].

لكن الإمبراطورة لم تلتزم دائماً بهذا المبدأ. فبالرغم من أن إدارتها كانت تضم العديد من المسؤولين المفكرين، فقد قامت بتعيين مجموعة من المقربين إليها والذين لم يكونوا يتمتعون بأي من تلك المواهب في البلاط. كانت لها شرطتها السرية الخاصة بها، وكان العديد منهم من أقاربها الذين قاموا بإبادة أعدائها بطرق همجية. كما دارت حول حياتها الشخصية الكثير من الإشاعات التي تثير الدهشة، بما في ذلك حكايات حول مغامراتها الجنسية الماجنة مع اثنين من إخوتها غير الأشقاء عندما شارفت على بلوغ الثمانين من عمرها. يقال إن الإمبراطورة كانت تتناول الكثير من المنشطات، لدرجة أن «أسناناً وحواجب جديدة قد نبتت لها»[٢٠].

تمت الإطاحة بالإمبراطورة أخيراً سنة ٧٠٥. بعد سبع سنوات من الصراع المميت على السلطة، استعادت أسرة "لي" العرش، وفي سنة ٧١٢، عادت سلالة تانغ الحاكمة إلى الواجهة. تولى الإمبراطور الجديد الذي كان يدعى مينغ هوانغ، أو العاهل الرائع، الحكم في أكثر عهد عرفته الصين في تاريخها ازدهاراً وروعة من الناحية الثقافية.

السلطة التانغية في أوْجها

يُعد مينغ هوانغ، إلى جانب تايزونغ، واحداً من أعظم أباطرة سلالة التانغ الحاكمة. قام بعد اعتلائه العرش، بتطهير البلاط الإمبراطوري من أسوأ مظاهر التبذير والمجون اللذين سادا عهد الإمبراطورة وو، كما قام بإلغاء عقوبة الإعدام، والتزم بإجراء إصلاحات في كل أنحاء الإمبراطورية. وكانت مدة حكمه الأطول في تاريخ سلالة التانغ الحاكمة؛ إذ امتدت لنصف قرن من الزمن تقريباً (٧١٢-٧٥٦). سار على خطى تايزونغ وذلك من خلال دمجه للنشاط العسكري مع النشاط الدبلوماسي في مجال السياسة الخارجية. وصل نفوذ الصين في مجال السياسة الخارجية إلى أوجه في عهده، حيث أقرت الشعوب غير الصينية من كشمير إلى كوريا، ومن إيران إلى فيتنام بنفوذ سلالة التانغ الحاكمة.

كانت العاصمة الإمبراطورية شانغان في قلب إمبراطورية التانغ المترامية الأطراف، وكانت أكثر مدن العالم ازدحاماً بالسكان في تلك الفترة. كان حوالي ثلث عدد سكانها من الأجانب الذين يضمون مندوبين من المنطقة العربية، وتجاراً من الهند وبلاد فارس وسوريا، ورهباناً وطلبة من كوريا واليابان، وقادة قبائليين من نيبال والتيبيت وسيبريا، وفنانين وممثلين من بخارى وسمرقند وطشقند.

كان في متناول أيدي سكان شانغان الصينيين الموسيقى والأزياء والنكهات الأجنبية المتنوعة التي أقبلوا عليها بشغف. أصبحت رياضة البولو - التي أتت بشكل مؤكد تقريباً من بلاد فارس - الرياضة المفضلة لأبناء المجتمع الأرستقراطي. وفي بعض المناسبات الخاصة، كانت عازفات الناي من وسط آسيا يجلسن على منصات تحملها الجِمال ويعزفن موسيقى جديدة غير مألوفة على آلات القرب الموسيقية التي تشبه الناي، والتي كان المسؤولون الإمبراطوريون يستمتعون بها جداً. وكانت النساء الصينيات الأرستقراطيات يلبسن ثياباً ضيقة وأوشحة على الطراز الدارج في آسيا الوسطى. وفي مناسبات أخرى، كن يلبسن سراويل فضفاضة، ويمتطين ظهور الجياد، في تناقض واضح مع نساء الطبقات العليا في عصور تالية من التاريخ الصيني، واللواتي لم يكن باستطاعتهن المشي إلا بالكاد بسبب تكور أقدامهن في الأحذية الضيقة جداً التي كن يلبسنها [٢١].

لم تكن شانغان مجرد مدينة اصطفائية أو معنية بالأناقة. كانت أيضاً مركزاً للتعليم والفن الراقي. في عهد الإمبراطور مينغ هوانغ، ازدهرت الآداب وفنون الرسم والنظريات الجمالية والتاريخية، وازدهر الشعر كما لم يزدهر من قبل. عاش أهم الشعراء في تاريخ الصين مثل لي بو، وتو فو، ووانغ وي، في ذلك العصر. وقد وصفها أحد المؤرخين بالقول: «كانت شانغان أكثر من مجرد عاصمة دائمة الحركة لإمبراطورية عظيمة: لقد كانت مدينة عالمية، كانت أعظم مدينة في الكون؛ كانت مركز الإشعاع الحضاري لجميع أرجاء شرق آسيا» [٢٢].

اشتهر مينغ هوانغ، مثل تايزونغ، بانفتاحه على الأجانب، وتسامحه مع

الاختلافات في الثقافات والعقائد الدينية. استقبل الإمبراطور مينغ هوانغ سنة ٧١٣ وفداً عربياً قوامه سفراء أرسلهم الخليفة الأموي الوليد لبحث التعاون فيما بينهما في الشؤون العسكرية. رفض العرب، في مخالفة للبروتوكول الإمبراطوري، السجود - بحيث تلامس جباههم الأرض - أمام الإمبراطور. أكد هؤلاء الغرباء أن المسلمين لا يسجدون إلا لله وحده، وما يمكنهم القيام به هو القيام فقط بانحناءة خفيفة أمام ملك دنيوي. لوح مينغ هوانغ بيده مشيراً إلى تنحية هذا الفرض البروتوكولي جانباً؛ وقال، وهو يكظم غيظه الممزوج بالدهشة: «بروتوكول البلاط ليس موحداً في جميع البلدان.» (بعد مرور ألف سنة على هذا الحدث، اتخذ حكام المانشو قراراً معاكساً. فعندما رفض السفير الإنجليزي اللورد أمهيرست السجود أمام الإمبراطور، تم طرده خارجاً، وقطعت على إثر هذه الحادثة العلاقات الدبلوماسية.) كان التجار الأجانب والبعثات التبشيرية في العصر الذهبي لإمبراطورية التانغ من مسلمين وبوذيين ويهود ومسيحيين وزرادشتيين أو مانويين، يتعبدون بحرية في أماكن عبادتهم من دون خوف من الاضطهاد، وكانوا يقومون بهذه الطقوس الدينية أحياناً تحت حماية الجيش الإمبراطوري [٢٣].

كان التسامح الذي مارسته إمبراطورية التانغ مذهلاً مقارنة مع سلوك اثنتين من الإمبراطوريات الكبرى المعاصرة لها: وهما الخلافة الأموية، والإمبراطورية البيزنطية اللتان كانتا متعصبتين من الناحية الدينية.

بنيت الإمبراطورية الأموية (٦٦١- ٧٥٠) على أساس العقيدة الإسلامية التي رفضت كل الديانات الأخرى باعتبارها تشكل نوعاً من أنواع الهرطقة. وبالرغم من أن الاضطهاد الذي مورس على غير المسلمين في بداية عهد الأمويين كان خفيفاً، فقد قام الخليفة الوليد نفسه الذي تمت الإشارة إليه آنفاً، بمحاصرة النبلاء المسيحيين في أرمينيا بين سنتي ٧٠٤ و ٧٠٥، وحرقهم حتى الموت في كنائسهم. وتم صلب البعض، وقطع رؤوس البعض الآخر. بعد بضع سنوات، أصدر الخليفة عمر الثاني التصريح التالي: «أيها المؤمنون، إن كل من ليس على دين الإسلام، فهو قذارة. هؤلاء خلقهم الله كي يكونوا من أتباع الشيطان، أغلبهم ليست لهم ذمة، ولا خير

يرجى منهم في هذه الحياة الدنيا بالرغم من أنهم يحسبون أنفسهم من الخيّرين؛ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.» لم يكن يسمح لغير المسلمين استلام مناصب حكومية. (على سبيل المقارنة، عندما هرب أمير الساسانيين الفرس بعد أن هزمه العرب، إلى الصين سنة ٦٧٤، تم استقباله والترحيب به في شانغان وعين قائداً للحرس الإمبراطوري) [٢٤].

كانت الإمبراطورية البيزنطية أكثر تطرفاً في اضطهاد من كانت تعدهم من الهراطقة. كانت الوثنية قد استؤصلت بالفعل مع حلول القرن السابع الميلادي من خلال إرغام أتباعها على اعتناق المسيحية، وتعذيبهم، وتجويعهم، والإجهاز عليهم في مذابح جماعية. كما انتشرت معاداة السامية في كافة أرجاء الإمبراطورية؛ أصدر الحكام البيزنطيون من هرقل إلى ليو الثالث الأوامر بفرض طقوس المعمودية على اليهود. في عهد جوستانيان الثاني (٦٥٨ - ٦٩٥، ٧٠٥ - ٧١١)، استمرت موجات القمع العنيف، حيث حكم بالموت على أتباع الكنيسة الأرمينية الأرثوذكسية المنافسة بالموت حرقاً. كانت تجاوزات جوستانيان بمنتهى الفظاعة - زعم غيبون أنه أمر بجلد والدته بواسطة أحد كبار مستشاريه - لدرجة أنه قد تم جدع أنفه بعد أن أقصي عن الحكم، ولقب بعد ذلك بجوستانيان وحيد القرن، أي «ذي الأنف المجدوع». مع حلول منتصف القرن الثامن، أصبحت بيزنطة ظلاً باهتاً لذاتها السابقة حيث استولى العرب على معظم أراضيها.

سوف تتم مناقشة صعود الإمبراطوريتين العظيمتين المسيحية والإسلامية -بما في ذلك الكلفة التي تسبب بها التعصب التوحيدي في هاتين الديانتين- في القسم الثاني من هذا الكتاب. أما الآن، فأكتفي بالقول إن أكبر قوتين في الشرق الأوسط بين سنتي ٦٠٠ و٨٠٠ قامتا على أسس تتعلق بعقيدتيهما. «كانت كل واحدة من هاتين الإمبراطوريتين تؤمن تماماً بأن غير المؤمنين لا يمكن لهم أن يقدموا شيئاً له قيمة تذكر لأتباع الدين الحقيقي.» كان التعصب في تلك المجتمعات يشكل تناقضاً صارخاً مع سلالة التانغ الحاكمة «الأكثر تراخياً» والأقل تعصباً، والتي «كانت الصين في عهدها تتمتع بأكثر الحقب تنوعاً وازدهاراً من الناحية الثقافية في تاريخها» [٢٥].

اهتم الحكام التانغيون أكثر من أي سلالة حاكمة صينية أخرى بالإمبراطوريات

المعاصرة لهم، وسعوا إلى التعرف على أنماط الحياة اليومية في المدن الأجنبية. تحتوي الوثائق الإمبراطورية لسلالة التانغ الحاكمة على وصف تفصيلي مدهش لبيزنطة التي سماها الصينيون "فولين":

فو لين هي [الإمبراطورية الرومانية]. تقع على شواطئ البحر الغربي؛ تحدها من الجنوب الشرقي بلاد فارس، كما تجاور الأتراك الغربيين من جهة الشمال الغربي. تعج أراضي هذه الإمبراطورية بالسكان، وفيها العديد من المدن والبلدات، كما أن أسوار العاصمة مبنية بالحجر، وتعيش فيها أكثر من مئة ألف عائلة. وهناك بوابة ضخمها ارتفاعها مئتا قدم مصنوعة كلياً من البرونز [البوابة الذهبية]. يوجد تمثال بشري من الذهب الخالص في القصر الإمبراطوري مزخرف بالزجاج والكريستال، والذهب والعاج والأخشاب النادرة. أسطح مبانيها إسمنتية ومسطحة. هناك آلات تعمل بقوة الدفع المائي في عز حرارة الصيف لحمل الماء إلى السطح وهذا الماء يساعد في جعل الهواء أكثر إنعاشاً وهو يتساقط على شكل زخات من أمام النوافذ.

يساعد الملك في تسيير أمور الحكومة اثنا عشر وزيراً. عندما يغادر الملك قصره يرافقه شخص يحمل حقيبة لتلقي الطلبات والشكاوى، يستطيع أن يلقي فيها أي شخص الطلب الذي يريده. الرجال شعرهم قصير، ويلبسون أثواباً مطرزة، يظهر فيها الذراع الأيمن عارياً. أما النساء فتسريحاتهن تشبه التاج. يقدر سكان فو لين الثروة والغنى، ويحبون تعاطي الخمر وتناول الحلوى. وفي اليوم السابع من كل أسبوع [الأحد المسيحي] لا يقوم أحد بأي عمل.

من هذه البلاد يأتي الحرير الصخري والمرجان والحرير الناعم، وكثير من المنتجات الأخرى الغريبة. لديهم العديد من السحرة المهرة الذين بإمكانهم بصق النار من أفواههم، ويسكبون الماء من بين أيديهم، ويسقطون اللآلئ من بين أقدامهم. كما أن لديهم العديد من الأطباء المهرة الذين بإمكانهم شفاء الكثير من الأمراض من خلال استخراج الديدان من رؤوس المرضى.

أما الوصف الموجود في وثائق سلالة التانغ الحاكمة للمنطقة العربية وأصول الإسلام فهو شبيه بالوصف الذي تقدم ذكره:

كانت المنطقة العربية في الماضي جزءاً من بلاد فارس. رجال هذه المنطقة

أنوفهم كبيرة ولحاهم سوداء. يتمنطقون سيوفاً فضية اللون تربط إلى حزام فضي. لا يشربون الخمر ولا يعرفون الموسيقى. بشرة نسائهم بيضاء، ويضعن فوق وجوههن نقاباً عندما يخرجن خارج منازلهن. هناك قاعات ضخمة مخصصة للعبادة يمكن أن تستوعب مئات من الناس. يصلون خمس مرات في اليوم تعبداً لإله الكون. في اليوم السابع عندهم [يوم الجمعة] يعتلي ملكهم [الخليفة] المنبر ويتجه إلى رعاياه قائلاً: « من يقتل في المعركة سوف يحيا من جديد في الجنة. ومن يقاتل بشجاعة سوف ينال الرضا والسعادة.» لهذا السبب، كان رجالهم مقاتلين بواسل. أراضيهم فقيرة ولا تنبت الحبوب، ولذلك فهم يقتاتون على لحوم الحيوانات التي يصيدونها، ويجمعون العسل من بين الصخور. بيوتهم أشبه بقلنسوة العربة [الخيام]. يزرعون أنواعاً من العنب حباته بحجم بيض الدجاج.

في عصر سوي...كان هناك رجل [محمد] من الشعوب الغربية (هُوُ) التي تتبع بلاد فارس يرعى القطيع في جبال قرب المدينة [المنورة]. قال له رجل على هيئة الأسد [الملاك جبريل]: «إلى الغرب من هذا الجبل، يوجد في إحدى المغارات سيف وحجر أسود اللون [الحجر الأسود في أحد جدران الكعبة] منقوشة عليه حروف باللون الأبيض. من يضع يده على هذين الشيئين سوف يحكم العالم.» قصد الرجل ذلك المكان ووجد هناك كل شيء كما قيل له. ... بعد ذلك، أصبح [العرب] أقوياء جداً. استطاعوا قهر بلاد فارس، وهزموا ملك فو لين [بيزنطة]، وغزوا شمال الهند، وهاجموا سمرقند وطشقند. أما من ناحية البحر الجنوبي الغربي، فقد امتدت إمبراطوريتهم إلى حدود بلادنا.

مهما بلغت درجة التضخيم وعدم الدقة لهذا الوصف لكل من بيزنطة والإسلام، فإنه يدل على النزعة نحو الفضول المتسم بالثقة بالنفس، كما يدل على الجهد المبذول للوصول إلى فهم أفضل للثقافات الأجنبية ، وهذه سمة من سمات التانغيين. وبينما يمكن أن يعتبر القارئ الحديث أن مثل هذه العروض غير مقبولة بالنسبة إلى ذوي الثقافة الرفيعة، فإنها توحي بمعرفة بالعالم الخارجي أكبر بكثير من المدونات التي كانت بحوزة أباطرة المانشو كينغ، على سبيل المثال، الذين حكموا الصين بعد ألف سنة على ذلك (١٦٤٤- ١٩١٢). فبالرغم من أن العالم تقدم بشكل مدهش في مجال الاتصالات والتكنولوجيا، كان أباطرة كينغ يجهلون بشكل يثير الدهشة -

وربما لم تكن لديهم الرغبة في معرفة – أي شيء عن القوى الأوروبية الصاعدة التي أحبوا أن يضعوها في سلة واحدة من خلال وصفهم لها «بالبرابرة الذين يدفعون الجزية». وفي أحد النصوص الإمبراطورية يعود تاريخه إلى منتصف القرن الثامن عشر، يمكن للمرء قراءة المغالطات التالية:

دفعت إيطاليا الجزية للصين سنة ١٦٦٧ (والحقيقة أن هولندا هي من دفعتها وليست إيطاليا)، وتبعها البابا الذي قام بدفع الجزية سنة ١٧٢٥ (لم يقم البابا بذلك أبداً).

فرنسا هي نفسها البرتغال!

السويد تابعة لهولندا.

الأسبان في الفلبين هم البرتغاليون الذين استولوا على مالاكا ومكاو.

السويد وإنجلترا هما الاسمان المختصران لهولندا.

في سنة ١٨١٨، تم تصنيف إمبراطوريات فرنسا وروسيا وبريطانيا – التي كانت على وشك احتلال الصين نفسها – في السجلات الإمبراطورية لمملكة كينغ على أنها "بلدان تابعة" للصين، شأنها في ذلك شأن مملكتي ترينغانو وكيلانتان، وممالك أخرى صغيرة في شبه جزيرة المالاوي. يؤكد بعض المؤرخين على أن جهل ملوك الكينغ العميق بالغرب كان عاملاً حاسماً زاد من عجز الصين عن مقاومة السيطرة الأوروبية [٢٧].

هل كانت الصين في العصر الذهبي لسلالة التانغ الحاكمة قوة مسيطرة عالمياً –أي قوة مطلقة شأنها في ذلك شأن بلاد فارس الأخمينية أو روما القديمة؟ ما يزيد في صعوبة هذا السؤال حقيقة أن الصين في القرنين السابع والثامن كانت محاطة بممالك وتحالفات قبائلية أصغر من حجمها هي بكثير، إلا أنها كانت من القوة بحيث كانت تشكل تهديداً عسكرياً جدياً للقوات العسكرية التانغية – في

الواقع، كانت من القوة بحيث إنها استطاعت حتى هزيمة الجيش التانغي عندما تم نشره بأقل من قوته الحقيقية، كما كانت الحال دائماً في إمبراطورية شاسعة كهذه الإمبراطورية. في سنة ٦٧٨، تعرض الجيش التانغي الذي كان قوامه ١٨٠٠٠٠ جندي إلى هزيمة منكرة على أيدي التيبيتيين بالقرب من بحيرة كوكو نور في الصراع من أجل السيطرة على أراضي المنطقة الغربية. وفي سنة ٧٥١، تعرض أحد الجيوش التانغية الأقل حجماً إلى هزيمة على يد جيش الخليفة العباسي في معركة طالاس بالقرب مما يعرف اليوم بسمرقند - بالرغم من أن المعركة لم تكن في حقيقة الأمر سوى مناوشات حدودية، وقد فاقت القوات العربية بعديدها عدد أفراد الحامية التانغية.

ومما زاد في تعقيد الأمور، المحاولات المتكررة التي كانت الإستراتيجية التانغية تسعى إلى تطبيقها من خلال تطويع الممالك المنافسة عن طريق ممارسة دبلوماسية القسوة مدعومة بالتلويح باستخدام القوة بدلاً من القيام بفتوحات تسفك فيها الدماء. كانت هذه الإستراتيجية ناجحة جداً لكنها عرضت التانغيين للمخاطر، وجعلت سيطرتهم تعتمد على ولاء الملوك الأجانب ورعاياهم الذين كانوا يعاملون باحتقار في معظم الأحيان من قبل الصينيين، والذين ردوا على هذه المشاعر بعداء مكشوف للصين.

بالرغم من نقطة الضعف هذه، فإن السيطرة العالمية التي كانت تتمتع بها الصين في عهد سلالة التانغ لم تكن موضع شك أبداً. كان المدى الذي ذهب إليه التانغيون في التربع على عرش العالم الذي كانوا فيه، يقطع الأنفاس. تأملوا «القوى العظمى» في أوروبا في مرحلة ما بعد روما. ربما كانت الإمبراطورية الفرانكية هي القوة الغربية الأعظم في القرنين الثامن والتاسع، وكانت تحكم مابين خمسة إلى عشرة ملايين من الرعايا في عهد الملك الذائع الصيت آنذاك، شارلمان. في تلك الفترة، كان يعيش في ظل حكم الإمبراطور مينغ هوانغ ستين مليوناً. في ذلك الوقت نفسه تقريباً، لم تكن الإمبراطورية البيزنطية تحكم أكثر من عشرة إلى ثلاثة عشر

مليوناً. حتى الخلافة الأموية في الشرق الأوسط – التي كانت تشكل إمبراطورية أكثر قوة، وكان تعداد رعاياها أكبر من ذلك بكثير، واحتلت المرتبة الثانية بعد الصين التانغية – كان عدد رعاياها لا يتجاوز ستة وثلاثين مليوناً. كان الجيش الأموي أقل بكثير من حيث العدد، من الجيش الصيني الذي كان يبلغ تعداد جنوده العاملين ما بين ٥٠٠٠٠٠ و٧٥٠٠٠٠ جندي. باختصار، تجاوزت الصين التانغية في أوج عصرها الذهبي كل القوى الأخرى في العالم من حيث عدد سكانها وثروتها وقوتها العسكرية الإجمالية [٢٨].

أفول نجم التانغيين وبروز التعصب

كما كانت الحال في الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، فإن التسامح الذي اعتبر جزءاً لا يتجزأ من السطوة والتأثير اللذين طبعا الإمبراطورية التانغية، كان يحمل في طياته بذور انهيار تلك الإمبراطورية. من المفارقة ملاحظة أن سقوط إمبراطورية التانغ يعود إلى هجوم قام به أحد الأجانب الذين تسلموا سلطات كبيرة في الإمبراطورية. حل التعصب مكان التسامح في اللحظة التي بدأت فيها الإمبراطورية في التداعي.

كانت سياسة التانغيين التي تقضي بممارسة التسامح كخيار إستراتيجي تعني أن الإمبراطورية لن تحاول أبداً فرض الهوية الصينية "الهانية" على رعاياها من غير الصينيين. تسببت هذه السياسة في غياب أي «غراء» مشترك من النواحي السياسية، أو اللغوية، أو الثقافية يربط ما بين «البرابرة» والصينيين في الإمبراطورية التانغية الصاعدة. على العكس من ذلك، وجد الإمبراطور مينغ هوانغ نفسه في بداية القرن الثامن حاكماً على أعداد كبيرة من المجموعات البشرية المتمايزة التي تتمتع بروح استقلالية شديدة، والتي لا تشعر بأي نوع من الولاء، أو حتى أي شكل من أشكال النوايا الطيبة تجاه أسيادها الصينيين.

كان على مينغ هوانغ أن يعتمد في حفظ القانون والنظام في الإمبراطورية ككل،

على قوات قوام أغلبها من الأجانب، وخصوصاً من الشعوب التركية مثل قبيلتيْ "زي" و "كيتان". كان زعماء هذه القبائل يعينون حكاماً عسكريين يقودون جيوشاً احترافية كبيرة تهدف إلى حماية الحدود، وكانت هذه الجيوش فعلياً تمارس سلطات مدنية واقتصادية وعسكرية من دون أن تكون خاضعة لأي مساءلة. أنشأ التانغيون بين سنتيْ ٧١٢ و ٧٣٣ تسعاً من تلك الحاكميات. كان هؤلاء الحكام العسكريون غالباً ما يتصرفون بمبادرات شخصية منهم لتوسيع رقعة الإمبراطورية التانغية. ونظراً للمردود الإيجابي لتلك الاعتداءات الناجحة، فقد ازدادت وتيرة الأعمال العسكرية المستقلة عن الأوامر الإمبراطورية المركزية. ونتيجة لذلك، بدأت السلطة المركزية تفقد سيطرتها بشكل تدريجي، وازدادت معها سيطرة الأجانب على مقاليد الحكم في عهد مينغ هوانغ.

كان الاستقلال الذاتي والسلطات الممنوحة للقادة العسكريين من غير الصينيين تعكس بمعنى من المعاني النجاح الباهر الذي حققه المسعى التانغي لتجاوز خطوط التماس التي تفصل بين الصينيين والشعوب «البربرية» التي تعيش في السهوب. لكن الجيوش الأجنبية الجرارة التي ضمتها الإمبراطورية التانغية بقيت كما هي – جيوشاً أجنبية. عندما بدأت الجيوش التركية، أو التيبيتية، أو المنغولية التي يقودها جنرالات طامحون، تشعر بأن الصينيين يستغلونها ويسيطرون عليها، انقلبت على التانغيين. بدأ الأجانب الذين لم يشعروا يوماً بأنهم جزء حقيقي من المملكة الوسطى، يتعاملون مع الإمبراطورية التانغية في نهاية المطاف باستخفاف.

كانت الضربة القاضية التي تلقتها الإمبراطورية التانغية تتمثل في العصيان الذي قام به آن لو شان سنة ٧٥٥. في أربعينيات القرن الثامن، وقع الإمبراطور مينغ هوانغ، وكان يبلغ من العمر حينها حوالي ستين سنة، في غرام إحدى خليلات ابنه، وتدعى يانغ غوي في. استطاعت يانغ غوي في، خلال مدة قصيرة، السيطرة بشكل كامل على الإمبراطور الولهان، وامتلأ خلالها البلاط بأقربائها وأتباعها الفاسدين. ومن خلال نفوذ يانغ غوي في، استطاع آن لو شان، وكان رجلاً عسكرياً بديناً، الحصول على السلطة اللازمة لتنظيم ثورة غيرت وجه الصين إلى الأبد.

يختلف المؤرخون حول الانتماء العرقي الدقيق لآن لو شان. استناداً إلى أحد المصادر التاريخية، كان آن لو شان ينتمي إلى قبيلة تركية، أما بعض المصادر الأخرى فقد ذكرت أن أصوله تعود إلى الأتراك السوغدينيين. إلا أن هناك إجماعاً بأن أصوله غير صينية؛ فقد كان بديناً وغير متعلم، وكان مستوى ذكائه بدائياً. من الواضح أيضاً أن آن لو شان كان يملك سعة من الدهاء، ويعرف كيف يرضي قادته. رقي إلى رتبة جنرال سنة ٧٥٠، وأصبح من رواد البلاط المفضلين. ألهب خلال تلك الفترة مشاعر يانغ غوي في، وكان يسلي الإمبراطور بحركاته البهلوانية التهريجية[٢٩].

بالرغم من أن بعض أفراد العائلة الإمبراطورية شككوا في دوافع آن لو شان، فإن يانغ غوي في أخذته على عاتقها وكان في ظل حمايتها، لدرجة أنها تبنته كابن لها. نتيجة لذلك، حاز آن لو شان على امتياز غير مسبوق تمثل في زيارة مخدعها في القصر، وهو ما يشير إلى أن الاثنين كانت تربطهما علاقة عاطفية، كما أشار كثير من المؤرخين. على أي حال، فبالرغم من مولده المتواضع، وإرثه الأجنبي، استطاع آن لو شان أن يجمع بين يديه سلطات استثنائية. عين آن لو شان سنة ٧٥٤ مفوضاً للإسطبلات الإمبراطورية، وهو منصب مهم جداً من الناحية الإستراتيجية؛ وقد أثار هذا التعيين الرعب بين أفراد العائلة الإمبراطورية. عشية إعلانه العصيان، كانت لآن لو شان القيادة المطلقة لثلاث من المناطق الشمالية المهمة بما فيها العاصمة الحالية بيجين، وشانكسي، وشانغ دونغ؛ وكانت تحت إمرته قوة قوامها ٢٠٠٠٠٠ جندي و٣٠٠٠٠٠ حصان.

في تلك الأثناء، بقي آن لو شان يؤدي دور المهرج في البلاط. وصلت إلى مسامع الإمبراطور في إحدى المرات إشاعة تفيد بأن آن لو شان يخطط للانقلاب على الإمبراطور. عندما استدعي إلى حضرة الإمبراطور، خر آن لو شان ساجداً على قدمي الإمبراطور وهو يبكي، ويقسم بأغلظ الأيمان أنه موالٍ للإمبراطور، وبأن هذه الإشاعة هي من صنع أعدائه بقصد تشويه سمعته. اقتنع الإمبراطور تماماً بحججه، وأغدق عليه ألقاباً جديدة[٣٠].

بعدها بمدة وجيزة، أعلن آن لو شان تمرده سنة ٧٥٥. وقعت كل من شانغان والعاصمة الشرقية لي يو يانغ في قبضة قوات آن لو شان فوراً. فر الإمبراطور ويانغ غوي في مع بعض الوحدات العسكرية يجرون أذيال الخزي والعار إلى مدينة سي شوان. تمردت الوحدات العسكرية المرافقة للإمبراطور وطالبته بإعدام خليلته التي ألقوا عليها اللوم، باعتبارها سبب المصيبة التي ألمت بهم. وبحكم أنه لم يكن أمامه خيار آخر، لم يملك الإمبراطور الكسير الفؤاد إلا أن يأمر كبير خصيانه بخنق خليلته المحبوبة. تم إلقاء جثتها في إحدى الحفر؛ بعدها، تنازل الإمبراطور المكسور الخاطر عن العرش لصالح ابنه. وكان لا بد من الانتظار مدة ثماني سنوات قبل أن يتم سحق تمرد آن لو شان، واستعادة سلالة تانغ الحاكمة للسلطة.

كانت حركة التمرد التي قام بها آن لو شان نقطة تحول في التاريخ الصيني، لأنها مثلت بداية الطريق الطويل لانحلال الإمبراطورية التانغية. حاول الأباطرة التانغيون قبل قيام حركة التمرد تلك، بمحاولة التعمية على الانقسامات الحادة بين الصينيين من جهة، وغير الصينيين من جهة أخرى، وذلك من خلال تعمد اتباع سياسات تفضي إلى المزج بين هاتين الجهتين عرقياً وثقافياً. نجحت هذه السياسة أيما نجاح على امتداد سنين عديدة. حتى عندما كانت الإمبراطورية تتوسع جغرافياً من خلال استيلائها على مزيد من الأراضي، كانت تستمد الصين التانغية حيويتها وقوتها - على الأصعدة العسكرية والاقتصادية والثقافية - من انخراط الأجانب في كل مناحي الحياة الصينية. ولكن ذلك كله كان مقدراً له أن يتغير. فمع حلول نهاية القرن الثامن، تحول انفتاح التانغيين على الشعوب الأجنبية والأفكار الأجنبية إلى مصدر ليس للقوة، بل للانقسام، وغياب الأمن، والعنف[٣١].

حتى قبل حركة التمرد التي قادها آن لو شان، كانت تحدث بعض المناوشات والهجمات التي قامت بها مجموعات غير صينية مثل التيبيتيين والأتراك الغربيين، والنانشويين على طول المناطق الحدودية التابعة للأراضي التانغية. أعقبت حركة التمرد التي قام بها آن لو شان سلسلة من الهزائم العسكرية التي ازداد وقعها مع

مرور الوقت، وبدأت معها حدود الإمبراطورية التانغية بالتداعي. امتدت سلطة التيبيتيين إلى مناطق الصين الغربية، وفقد الحكام التانغيون السيطرة على طريق الحرير. في الوقت نفسه، كان القادة العسكريون الإقليميون في طول الصين وعرضها - وكانت غالبيتهم الساحقة من الأجانب - قد بدؤوا يظهرون مزيداً من التحدي لسلطة الحكومة التانغية المركزية. انتشر الإسلام بسرعة في المناطق التي كان التانغيون يسيطرون عليها في وسط آسيا، وفي نهاية المطاف حل الإسلام محل البوذية كأكبر ديانة في المنطقة. وبينما كان الحكام التانغيون قد تقبلوا المسلمين ومساجدهم في الماضي كجزء من عالمية مجتمعهم، أصبح الإسلام الآن قوة منافسة وشكل تهديداً للسلطة التانغية[٣٢].

في نهاية القرن الثامن، أمسك التعصب بتلابيب الصين التانغية، وانتشر كالسرطان. وبدأ الصينيون بمختلف طبقاتهم وفئاتهم يلقون باللوم على الأجانب باتهامهم لهم بأنهم وراء كل المشكلات التي كانت الصين تعاني منها. فوق هذا وذاك، كاد تركي جاهل أن يطيح بإمبراطورية التانغ. بالإضافة إلى ما تقدم، فقد كان من المعيب أن تسمح حكومة مينغ هوانغ للبرابرة أن يسيطروا على القيادة العسكرية الصينية.

ربما كانت أكثر الشعوب «البربرية» إثارة للاشمئزاز، هي قبائل الويغرز. فمقابل الدعم الذي تلقاه الحكام التانغيون - المتهافتون للحصول على دعم من أي كان، إبان حقبة التمرد الذي قاده آن لو شان - من قبائل الويغرز، فقد أغدقوا عليهم الهدايا، والألقاب الصينية الملكية، كما زوجوا الأميرات الصينيات لرجالهم. وكان آخر بند في هذا الاتفاق ينفذ كما يلي: كان الويغريون يجلبون إلى الصين كل سنة عشرة آلاف من الخيول التي كان العديد منها ضعيف البنية أو مريضاً. كانوا يحصلون على أربعين قطعة من الحرير مقابل كل حصان. وكانت قيمة التبادل تلك مجحفة جداً بحق الصينيين؛ ولم يمض وقت طويل قبل أن تفرغ الصناديق الصينية من الأموال. ولكن أياً من هذا لم يكن ليثني الويغريين عن إهانة المسؤولين التانغيين،

من خلال اقتحامهم للبلاط الإمبراطوري التانغي، وخطفهم للأطفال الصينيين، وقتلهم لمواطنين صينيين.

في النهاية، أثبتت تجربة تايزونغ التي حاولت خلق «إمبراطورية عالمية» فشلها. لم يكن بإمكان الصين التانغية في نهاية المطاف، التغلب على الاحتقار الذي يكنه الصينيون للبرابرة، وخوفهم منهم؛ وهي مشاعر كانت جذورها تضرب في عمق التاريخ وتعود إلى مئات السنين. بعكس روما، لم تستطع الصين تطوير مفهوم المواطَنة السياسية التي يمكن تطبيقها بشكل متساوٍ على الصينيين وغير الصينيين على حد سواء، وتكون مرضية للجميع من دون استثناء. وهكذا، فبدلاً من تقديم مشروع هوية سياسية واجتماعية توحد الصين بكل مكوناتها، بقيت هذه الهوية صينية محضة – بينما كان البرابرة يقبعون على الطرف المقابل من الخط. وعندما بدأ التصدع يظهر في الجسد الإمبراطوري، وتحولت المجموعات غير الصينية من الويغريين والتيبيتيين إلى خطر عدواني متعاظم، أفلت التعصب الصيني المحض من عقاله.

ذبح الآلاف من التجار العرب والفرس سنة ٧٦٠ على أيدي قطاع طرق صينيين في منطقة يانغ شو. وفي سنة ٧٧٩، قام الإمبراطور دي زونغ بطرد المبعوثين الأجانب، وأصدر مرسوماً يقضي بمنع غير الصينيين من ارتداء الملابس الصينية. كما تغيرت السياسة الإمبراطورية تجاه سكان السهوب. لم يكن هناك ما يوجب حتى التظاهر بأن البدو الرحل الشماليين هم «شركاء متساوون» مع الصينيين. في أفضل الأحوال، كان البرابرة يُعدون «مخالب وأنياب» الإمبراطورية، ومن ثم فإن واجبهم المحدد يقضي بالدفاع عن الجبهات الأمامية للصين التانغية لصالح الصينيين.

في الوقت الذي تعاظم الخوف من الأجانب، تراجعت عالمية التانغيين بحدة. نشر المسؤولون المثقفون الذين انحدروا من مناطق الجنوب الشرقي، والذين تبوؤوا السلطة بعد اجتيازهم نظام الامتحان فكرة أن المعايير الأخلاقية الصينية وثقافتها

الأرقى قد تلوثت بالأرستقراطيين من البرابرة المنحطين الذين قدموا من الشمال. كما انتشرت بين المثقفين حركة تؤكد على القيم الصينية التقليدية، والأساليب الأدبية الصينية القديمة. بدأ ينظر إلى التأثيرات والأفكار الأجنبية على أنها فاسدة ومفسدة، وتم بالفعل إغلاق كافة الطرق المؤدية إلى آسيا الوسطى. وفي حركة استحضرت نموذجاً تاريخياً برز إلى حيز الوجود مرات عديدة، انكفأت الصين على ذاتها بشكل مروع، حيث عزلت نفسها عن العالم الخارجي محاولة منها لاسترجاع «النقاء» من خلال تخليص نفسها من المؤثرات الخارجية [٣٣].

تعاظم مد التعصب التانغي في القرن التاسع. صدر أمر إمبراطوري سنة ٨٣٦ يقضي بمنع الصينيين من الاختلاط «بالشعوب الملونة»، وهو بذلك يقصد الأجانب من جنوب شرق آسيا، أو المقيمين خلف جبال البامير بمن فيهم العرب والفرس والهنود والمالاويون والسومطريون، ومجموعات أخرى. وكان أكثر مدعاة للدهشة، اندلاع موجات من الاضطهاد الديني في عهد الإمبراطور وو زونغ، وكان من أتباع الديانة التاوية المتشددين. أول ديانة تم استهدافها كانت المانوية التي يدين بها معظم الويغريين. أمر الإمبراطور وو زونغ سنة ٨٤٠ بإعدام سبعين راهبة مانوية، وتهديم المعابد المانوية ومصادرة أملاك المانويين. بعد خمس سنوات، عندما تم الإعلان عن التحريم الكامل سنة ٨٤٥، وجه الإمبراطور ضربته إلى كل الأديان الأجنبية. تعرضت المعابد المسيحية والزرادشتية إلى الإغلاق، ومنع كهنة تلك المعابد من ممارسة شعائرهم «كي لا يستمروا في إفساد البساطة الصينية ونقائها الأخلاقي».

فوق هذا وذاك، عانت الديانة البوذية من هجوم حاد عليها بالرغم من أنها تصيّنت وانتشرت بين الصينيين. اتهم المعبد البوذي بأنه تحول شيئاً فشيئاً إلى وكر للانحطاط، وذلك في الحقبة الأخيرة من العهد التانغي؛ ذلك أنه وبينما كانت الحكومة الإمبراطورية تعاني من شح في مواردها المالية، كانت الأديرة البوذية غنية بشكل فضائحي. وكان قسم من هذه الثروة يصرف على الرهبان الفاسدين الذين

حنثوا بقسمهم البوذي القاضي بأن يحيوا حياة تقشف، ويبتعدوا عن المتع الدنيوية الفاضحة. كانت أغلب مظاهر ثروة هذه الأديرة تتجلى في أراضي وقف تابعة لها، ومعادن ثمينة تزين التماثيل والأجراس ورموزاً دينية أخرى. وقد وجه أمر التحريم الصادر عن الإمبراطور وو زونغ اتهاماً محدداً ومباشراً للديانة البوذية بأنها «ديانة أجنبية» تسببت في انهيار الصين أخلاقياً واقتصادياً [٣٤].

قام وو زونغ بنزع الصفة الدينية بالقوة عن ٢٦٠٠٠٠ راهب وراهبة، وأعادهم إلى طوابير دافعي الضرائب، ويعود ذلك جزئياً إلى أنه كان يريد زيادة الموارد المالية للخزانة التي كانت تنضب شيئاً فشيئاً. كما أمر بإغلاق ٤٠٠٠ من الأديرة البوذية، و٤٠٠٠٠ من المعابد الأقل شأناً، أو تحويلها إلى مواقع عامة. تمت مصادرة الكثير من الممتلكات العائدة للكنيسة، كما تم تذويب التماثيل البرونزية بهدف تحويلها إلى نقود معدنية. إلا أن محاولة وو زونغ القضاء على البوذية باءت بالفشل؛ فقد كان العديد من المسؤولين في مختلف أرجاء الإمبراطورية متعاطفين مع البوذية، ومن ثم، فقد قاوموا بصمت أوامر الإمبراطور. زد على ذلك، أنه بعد مرور سنتين على صدور قانون التحريم الذي سنه وو زونغ، اعتلى إمبراطور جديد العرش، وأصدر قوانين معاكسة للقوانين المناهضة للبوذية، والتي أصدرها سلفه حيث أعاد ترميم الأديرة المهدمة؛ ولم يكتفِ بذلك، بل أمر ببناء أديرة جديدة. وبالرغم من أن العصر الذهبي للديانة البوذية في الصين كان قد ولى إلى غير رجعة، فقد استمرت هذه الديانة في الصين لقرون أخرى قادمة. وفي المقابل، اختفت كل من المانوية، والنسطورية، والمسيحية، والزرادشتية في نهاية المطاف من الصين [٣٥].

شهد القرن التاسع تداعي سلطة الحكام التانغيين ونفوذهم. برز بدلاً من ذلك، أمراء الحروب الإقليميون الذين استولوا على الحكم في ممالكهم؛ كما فقدت الحكومة المركزية السيطرة على الموارد المالية. بين سنتيْ ٨٧٥ و٨٨٤ ميلادية، مزقت الإمبراطورية سلسلة أخرى من الانتفاضات. أما الانهيار الكامل للإمبراطورية التانغية فقد كان مطولاً ودموياً. تعرضت شانغان لأعمال السلب

والنهب، وقام المتمردون في كانون بذبح مئة وعشرين ألفاً من التجار الأجانب وكان من بينهم المسلمون والمسيحيون واليهود والزرادشتيون. وفي سنة ٩٠٤، ألقى أحد القادة الإقليميين ويدعى زو وين القبض على الإمبراطور، ونفذ فيه حكم الإعدام مع كل أفراد حاشيته الإمبراطورية، بمن فيهم الخدم. أما بقايا القصور المنهوبة في شانغان، فقد ألقيت في مياه نهر "وي" حتى منطقة لو يانغ، حيث أقام زو وين عاصمته. انتهت الإمبراطورية التانغية سنة ٩٠٧، عندما قام زو وين بذبح آخر إمبراطور من سلالة التانغ الحاكمة وكان في بداية صباه. [٣٦].

بعد سقوط الإمبراطورية التانغية، فرضت الصين على نفسها عزلة كاملة، وترافق ذلك مع الإحساس بالرهاب من الأجانب. هاجر الصينيون بأعداد مهولة من الشمال، حيث كان الخطر البربري على أشده، متجهين إلى الجنوب الذي أصبح موطناً لمعظم الصينيين الذين شكلوا تجمعاً بشرياً هائلاً. وكان من قبيل المفارقة أن يكون البرابرة هم المتسامحون مع الصينيين على امتداد قرون كثيرة، وأن يكونوا هم بناة القوة العظمى اللاحقة التي سيطرت على العالم.